المنشآت الدفاعية بمدينة الجزائر وميناءها خلال العهد العثماني*

تمهيد: كانت مدينة الجزائر قبل وأثناء الحكم العثماني مهددة في أمنها وهدوئها، من قبل الجيش الملكي الاسباني، فقد بنى على أكبر الجزر المقابلة لمدينة الجزائر قلعة سماها الاسبان "البنيون Penon " أي القلعة الصخرية، فرضت حاميتها، هيمنة وسطوة على مدينة الجزائر ابتداء من سنة 1510، وتصدى لها عروج وخير الدين إلى أن تمكن هذا الأخير من هدم جزء منها وإنهاء الحضور الاسباني بالمكان سنة 1529، ورغم ذلك استمر العدوان الاسباني على المدينة سنة 1541 بقيادة شارلكان، مصرا على إعادة السيطرة عليها وطرد الأتراك العثمانيين منها، وقد سلك في هجومه الطريق البري باتجاه الجهة الجنوبية للمدينة حيث المرتفعات، لكنه انهزم ولم تتحقق أهدافه إلا أن المشروع التوسعي بقي متواصلا، فجددت اسبانيا حملاتها العسكرية ضد المدينة في أواخر القرن الثامن عشر، دون جدوى.

ولم يكن الاعتداء العسكري على مدينة الجزائر اعتداء اسبانيا فقط بل مارسته كذلك دول أوروبا الغربية الأخرى وعلى رأسهم فرنسا وانجلترا خلال القرن السابع عشر ومطلع القرن التاسع عشر، وبالتالي كان البحر دوما مصدرا للأخطار الخارجية، يليه البر أواليابسة التي كانت منفذا للخطر الداخلي المتمثل في القبائل العاصية والمناوئة للحكم العثماني، وسجلات التاريخ حافلة بقائمة طويلة للقبائل غير المخزنية التي كانت تنتظر الفرصة التي يتم فيها الانقضاض على الحكم العثماني المركزي وتقويض أركان دولته.

وعلى هذا الأساس اهتم الحكام العثمانيون بتحصين مدينة الجزائر معماريا من خلال إعادة بناء أسوارها بشكل متقن، وتشييد الحصون والأبراج وإحاطتها بالمدينة، حتى يتسنى للجيش وسكان المدينة من الدفاع عن مدينتهم وحفظ أعراضهم وممتلكاتهم من السطوالأجنبي أوالمحلي، وعندئذ يمكن التعبير على أن مدينة الجزائر في هذا السياق، كانت مدينة حربية، ولا يعني ذلك بتاتا أنها فقدت وظائفها الاقتصادية والإدارية والاجتماعية والثقافية.

أولا-المنشآت الدفاعية بمدينة الجزائر العثمانية: تتكون الوحدة الحضرية لمدينة الجزائر خلال العهد العثماني من جزءين متكاملين الأول يمثل المدينة داخل أسوارها والذي تتركز فيه

*د. بلبروات بن عتو-كلية الآداب والعلوم الإنسانية-قسم التاريخ -جامعة الجيلالي ليابس-سيدي بلعباس.

السكنات والهياكل الحكومية والغير حكومية ذات الوظائف الحضرية المختلفة والذي يتصل بالميناء اتصالا مباشرا، والجزء الثاني يمثل فحص المدينة الممتد خارج الأسوار، الذي تتوزع على ربوعه الحصون والأبراج والمقابر والبساتين والأحواش والفيلات والأكواخ. ويهمنا في هذه المداخلة معرفة المنشآت الدفاعية بالجزء الأول وهوالمدينة داخل أسوارها.

1-أسوار المدينة: ذكرت الكتابات التاريخية أن الأسوار هي من أساسيات البناء المعماري القديم، منها ما يتعلق بإكساب المدينة مظهرا جماليا، ومنها ما يتصل بالوقوف في وجه المتغيرات الطبيعية من فيضانات وعواصف، وكذلك حماية المدن عند تعرضها للغزووالعدوان، حيث تعد الأسوار حائطا دفاعيا صلدا للوقوف بثبات في وجه المعتدين وتعزيز الصمود والمقاومة[1].

وعند الحديث عن أسوار مدينة الجزائر كنموذج للمدينة الوسيطية –الحديثة، فإن الأمر يتطلب بعض التدقيق، في وصف مسار الأسوار وتموضعها، فإذا كانت المدن التلية الداخلية مثل قسنطينة وتلمسان ومعسكر وغيرها قد سورت من جهاتها الأربع، فإن مدينة الجزائر باعتبارها مدينة ساحلية بحرية، امتدت أسوارها على طول شريطها البري البالغ محيطه ثمانمائة ألف قدم، أما شريطها البحري البالغ محيطه سبعمائة ألف قدم، كان مكشوفا، إذ كان جزءا فقط من السور قائما على الصخور، وبقية الشريط الساحلي تتداخل فيه الحصون والأبراج والبطاريات (الطبانات) بالمباني السكنية.

كتب ديفولكس **Devoulx** عن أسوار مدينة الجزائر بوضوح ذاكرا سورين: سور داخلي عالي، وسور خارجي أقل ارتفاعا من الأول، يتباعدان بنحوستين قدما، وينطلقان من باب الوادي في غرب المدينة وباب عزون في شرقها ويتقاطعان عند القصبة الجديدة العليا في جنوب المدينة، وطولهما يقارب ألف وسبعمائة وثمانين مترا[2].

ولمعرفة درجة حصانة الأسوار، أفادنا ديفولكس بمعطيات رقمية تتعلق بالسمك والارتفاع:

-سمك السور الداخلي من ناحية باب الوادي، يتراوح بين 554.م و2.601م.

-سمك السور الداخلي من ناحية باب عزون، يتراوح بين 554.م و6م.

-سمك السور الخارجي يتراوح بين 20م و30م.

-ارتفاع السور الخارجي يصل إلى 52 شبرا.

-ارتفاع السور الداخلي على جانب البحر، يصل إلى 04 شبرا[3].

ووجد ديفولكس مواد عديدة في بناء الأسوار منها الحجارة المستعملة في بناء القسم السفلي للأسوار، والحجارة المصقولة المستعملة غالبا في الحصون، خاصة في الزوايا، والآجر المستعمل في القسم العلوي للأسوار، كما تتخلل الأسوار فوهات مربعة الشكل، متباعدة عن بعضها البعض بمسافات متوازية وتدعى غالبا بالفوهات النارية[4].

إذا حاولنا التعليق على هذه الأرقام فإننا نلاحظ أنه رغم سماكة السور الداخلي ومتانة حصانته، فإن القذائف الفرنسية سنة 1830 قد أحدثت فيه فجوات، استغلها ديفولكس في قياس سمك السور، كما نلفت الانتباه إلى أن وصول سمك السور إلى التقدير المذكور سابقا دلالة واضحة على سعة سطحه وتماشيه مع سطوح أسوار المدن العالمية، بحيث كان السطح السوري يتسع عادة لتمشي فيه ثمانية خيول مجتمعة، كما يتوفر على ممرات في وسطه، ويمكن لفارسين أن يمشيا مجتمعين معا أثناء التجوال والحراسة، كما يستعمل الممر نفسه لمرور عربات المدافع في حالات الدفاع عن المدينة لحمايتها من العدوان[5].

رغم أن الأسوار تمثل سلاحا دفاعيا ناجعا منذ القدم، إلا أنها لا تسمح بتوسع مستمر لعمران المدينة، وأعتقد أن انغلاق المدينة بأسوارها جعل ديارها متراصة وعالية البناء ومعظمها بطابق علوي، وطرقها وأزقتها ضيقة. وفي المقابل يمكن أن يتم التوسع العمراني خارج الأسوار أي في الفحوص.

2-بطاريات أسوار وقلعة المدينة:[6] تندرج عملية توزيع البطاريات المدفعية على أسوار المدينة ضمن مخطط دفاعي رسمه الأتراك العثمانيون لمقر حكمهم وعاصمة دولتهم –مدينة الجزائر– وقد أفادنا الدكتور درياس لخضر بصفحات عدد فيها البطاريات المدفعية وعرف بكل واحدة منها، اعتمادا على مصادر أوربية. هذه البطاريات، انتشرت على سطوح أسوار مدينة الجزائر (السور الغربي، السور الشرقي، والسور الشمالي)، وهي كالآتي:

*بطاريات السور الغربي للمدينة:

-بطارية الحمام المالح: تبعد عن باب الواد بخمس وأربعين مترا، تحمي شمال غرب المدينة، ويعود تاريخ بنائها إلى القرن السادس عشر، وهي مزودة بعشرة قطع مدفعية.

-بطارية سبع تبارن (أوصباط الحوت أوأرناؤوط مامي): تبعد عن باب الواد بمائة وثلاثين مترا، مزودة بستة مدافع.

-بطارية سيدي رمضان (أوقطع الرجل):[7]

-بطارية بدون تسمية: تبعد عن البطارية السابقة بثلاثين مترا، مزودة بسبعة مدافع.

-بطارية رحى الريح (أوحومة زيان): تبعد عن البطارية السابقة بمائتين وخمس عشرين مترا، وهي مزودة بتسعة مدافع.

*بطاريات السور الشرقي للمدينة:

-بطارية الباب الجديد: تقع على مسافة تسعين مترا من الجدار الجنوبي للقصبة، وهي مزودة بتسعة مدافع.

-بطارية حومة السلاوي: تقع أسفل البطارية السابقة على بعد مائتين وخمس وعشرين مترا، تحتوي على تسع فوهات نارية.

-بطارية بدون تسمية: تقع على بعد خمس وسبعين مترا أسفل باب عزون، على شاطئ البحر، وهي مزودة بعشرة مدافع ذات عيار 24، وأربعة مدافع ذات عيار 18.

-بطارية العسل: تجاور فندق العسل، وكان بها خمسة مدافع، ثلاثة منها مصوبة نحوالبحر ومدفعين في اتجاه البر.

*بطاريات السور الشمالي للمدينة:

-بطارية المارستان: تسمى أيضا بطارية المجانين لأنها كانت تجاور سجن المجانين، وهذه البطارية العائد تاريخها إلى القرن السادس عشر، كانت مزودة بثلاثة أوأربعة مدافع.

-بطارية قاع السور: تبعد بحوالي عشرين مترا عن برج باب البحر، وكانت تحتوي على أربعة مدافع.

-بطارية الجامع الكبير: تبعد عن بطارية قاع السور بثمانين مترا، مزودة بثلاثة مدافع ابتداء من نكسة المدينة أمام حملة اللورد اكسموث سنة 1816م.[8]

*بطاريات القلعة (القصبة الجديدة): كانت القصبة الجديدة كحي رسمي أوقلعة المدينة الواقعة في أعلى الأسوار، تتوفر على سبع بطاريات مبنية على تراب مركوم ومدعمة بواسطة جدران من الآجر بالجهتين الداخلية والخارجية لتشكل عندئذ حزام دفاعي، نبينه كالآتي:

-البطارية الأولى: تقع بالجزء الشمالي الشرقي للقصبة، تتكون من ثلاثة طوابق، وبها مخازن للمدافع والمهاريس المعدة للإصلاح وقاعات للجند الانكشاريين، وبرج مراقبة ومراحيض، وجدار تحصين وفتحات للرمي الناري، ويمكن لهذه البطارية أن تراقب السور الشرقي للمدينة والقصبة وحركة الميناء.

-البطارية الثانية: تقع في الجهة الجنوبية الغربية للقصبة، بها أربع فتحات لمراقبة المدينة والبحر، وثلاث فتحات للبنادق، بها غرف ومخبزة وقاعات للأسلحة، وتسع فتحات للمدفعية وجدار تحصين، وتشرف هذه البطارية على الجزء الجنوبي من الباب الجديد، والبحر من الناحية الشمالية الشرقية، وترتبط بالسور الشرقي، وبها مراحيض وقناة صرف المياه.

-البطارية الثالثة: زودت هذه البطارية بثماني فتحات للمدفعية، بسبع منها تتجه نحوالضاحية الجنوبية الشرقية، وتراقب المرتفعات الجنوبية حتى حصن الإمبراطور، بينما نجد الفتحة الثامنة بالمنعطف الشرقي بالجهة اليسرى، تراقب السور والخندق الشرقي حتى الباب الجديد.

-البطارية الرابعة: كان بها تسع فتحات للمدفعية ومجموعة مراحيض وغرف...

-البطارية الخامسة: تقع في أقصى الجنوب الغربي من القصبة، وتمثل أعلى نقطة بالمدينة، وتنتهي بجدار التحصين، وبالتالي هي بمثابة برج يتكون من طابقين للرمي مبنيين على تراب مركوم ويأخذ البرج شكلا مضلعا يتكون من ستة أضلاع خارجية بها مجموعة من الفتحات تتجه نحوالضاحية الجنوبية ووادي قريش، وتشرف على حصن الامبراطور من الجهة الغربية حتى جبل بوزريعة وربض باب الواد.

-البطارية السادسة: تأخذ هذه البطارية شكلا مضلعا يتكون من ست قاعات مستطيلة بها عشر فتحات للمدفعية ومجموعة من النوافذ التي تطل على الضاحية الغربية وتراقبها، كما تراقب الساحة الشمالية من قصر الداي والأسوار الملاصقة للقصبة، وتتكون البطارية من طابقين وبرج مراقبة وقاعات متصلة.

-البطارية السابعة: تتكون من خمس فتحات للرمي، تراقب شارع القصبة المقابل والممر الضيق الفاصل بين البطارية الأولى والبطارية الثانية، بها غرفة قائد الحرس، وعلى سطح البطارية، راية الدولة الحمراء والخضراء، ومصباح كبير يوقد كل ليلة دلالة على وجود وسهر الدولة على المدينة، وعلى هذا السطح كان يقضي الداي أوقات فراغه في الليالي المقمرة ومعه المنظار المكبر مطلا من خلاله على البحر. وبهذه البطارية يكتمل تحصين القصبة من جميع جهاتها[9].

3- خندق المدينة: أثناء عملية تجديد وإعادة بناء سور مدينة الجزائر خلال القرن السادس عشر، أنشأ الأتراك العثمانيون خندقا جديدا يحيط بالمدينة، كسلاح دفاعي يدعم السور، وقد سماه المكناسي في رحلته بالحفير، وهومحصور بين السورين الداخلي والخارجي، ويوازيهما من الجهة الأرضية حيث ينتهي عند ساحل البحر.

قد وصف ديفولكس على لسان بوتان **Boutin** سنة **1808** خندق المدينة قائلا: "لقد حفر الخندق في شكل شبه مثلث، وكان هناك منحدر في جهة كل ضلع، يستمر على قاع الخندق الذي يتراوح عمقه بين ستة وثمانية أمتار...وكان يستمر ابتداء من الباب الجديد إلى غاية باب عزون، وكذلك أعلى وأسفل باب الوادي...وبالجملة كان عرض الخندق يتراوح بين ثمانية عشر وخمس وعشرين مترا، لكنه لم يكن مستمرا إذ كانت تتخلله مواضع مليئة..."[10].

أفادنا عبد القادر حليمي أن خندق المدينة يعود تخطيطه إلى سنة **941**هـ/**1534**م، في عهد حكم حسن آغا، وذكر أنه محكم البناء، يصعب عبوره وتتخلله جسور متحركة يمكن رفعها وقت الحاجة[11].

لكن بعض الكتابات تذكر أنه تم تخطيطه بعد هزيمة الأرمادة التركية العثمانية في معركة الليبانت سنة **1573** على يد مهندس أوربي من الأعلاج[12].

كان الخندق خاليا من المياه، وأدى التسيب والإهمال واللامبالاة وافتقاد الوعي البيئي إلى أن يكون في بعض الفترات موضعا لرمي النفايات والفضلات والتراب مما قلص من عمقه، ويستثنى من ذلك خندق القصبة العليا وخندق باب الجديد اللذان كانا نظيفين بفعل حرص السلطات المحلية على ذلك[13].

هكذا نلاحظ أن الخندق يعزز السور، ويجعل كل محاولة لاقتحام المدينة العاصمة صعبة، ويمكن رجال المدفعية والبنادق من تثبيت رميهم وإصابة الأهداف من مختلف الفتحات النارية التي تم تخطيطها في الأسوار والأبراج والحصون.

نتساءل، لماذا خطط الأتراك العثمانيون سورين متواليين وخندقا عميقا من الجهة البرية فقط دون الجهة البحرية؟ وجواب ذلك يكمن في أنه يمكن لمدينة الجزائر أن يهددها خطر بري سواء كان محلي أوأجنبي، فالعديد من القبائل العربية والبربرية كانت تناوئ الحكم العثماني، كما كانت الحكومة المركزية بمدينة الجزائر تلتمس الحذر من بايات الأقاليم الجزائرية، فتحدثت الكتابات التاريخية عن نية عدد من البايات في اقتحام مدينة الجزائر. كما أن الخطر الخارجي يمكن له أن يهدد المدينة برا وبحرا، ونقصد بذلك الخطرين التونسي والمغربي من جهة، والخطر الأوربي من جهة أخرى، وتخصيصا الخطر الاسباني انطلاقا من مدينة وهران المحتلة ولعل حملة شارلكان**Charles Quint** سنة **1541** دليلا على ذلك.

نلاحظ أيضا أن الخندق قد صمم بطريقة ذكية تخدم مصالح المدينة من جهة والحكم العثماني من جهة أخرى، فهومفقود على البحر، وفي المحيط الخارجي للمدينة، وذلك- حسب اعتقادي- من أجل تفادي عرقلة حركة الأشخاص والبضائع في البر والبحر.

إذا كان الخندق يساعد على توفير الأمن والأمان لسكان مدينة الجزائر، فإنه في المقابل لا يسمح بتوسع عمراني داخل الأسوار، وهذا ما جعل السلطة الاستعمارية الفرنسية تردمه لفتح المجال للبناء السكني واستحداث الشوارع.

ثانيا-المنشآت الدفاعية بميناء مدينة الجزائر: وجد الإخوة بربروس عند دخولهم مدينة بني مزغنة سنة **1516** ميناء لا يعدوأن يكون مأوى طبيعيا شبه مربع، يتشكل من أرصفة صخرية، ومن هذه الصخور أربع قطع كبيرة هي أشبه بالجزر، واختيرت أكبر هذه الجزر موقعا للقلعة الإسبانية المسماة "البنيون" أوالصخرة الكبيرة الضخمة، وكانت القوارب الصغيرة ترسوفي ناحية باب الواد، والسفن الكبرى ترسوبمحاذاة ضريح سيدي عبد القادر الجيلاني، جهة باب عزون[14].

ورأى خير الدين بعد أن حظي من السلطان العثماني سليم الأول بلقب البايلرباي إثر إلحاق الجزائر بالخلافة العثمانية، أنه من الضروري بعث الحيوية لميناء مدينة الجزائر وتمكينه من استيعاب النشاط التجاري مع الدول الأجنبية، فحرص بادئ ذي بدء على هدم القلعة الاسبانية وتسنى له ذلك في سنة **1529** بعد مساندة سكان مدينة الجزائر له، واعتراف مدن شرق البلاد بحكمه، ومن ثم بدأ في تخطيط الميناء بكيفية تجعله ميناء محصنا يحمي السفن الراسية من العواصف البحرية، ويتصدى للاعتداءات الأجنبية، ويستوعب نشاط كل من له صلة بالبحر سواء كان عاملا بورشات السفن أوصيادا أومجاهدا، وإذا كانت خطة الميناء قد ارتسمت خلال القرن السادس عشر فإن التحسينات المعمارية قد تواصلت إلى غاية فترة حكم الداي حسين **1818-1830**م.

1-بناء المول بين 1529-1531:

*المول الأصغر (مول خير الدين): اعتمادا على صخور قلعة البنيون المهدمة ومواد البناء التي تواجدت بالحصن والصخور الضخمة التي تواجدت بالمدينة منذ العهد الروماني، شرع خير الدين في ربط الجزر الأربعة بالمدينة وبدأ بردم الفتحة التي بين أكبر صخرة وأرض المدينة، ثم ردم الفجوة التي بين الصخور الأربعة التي سميت بعد ذلك بالمول، الذي بلغ طوله ثلاثمائة قدم

واستغل وجود العدد الضخم من الأسرى المسيحيين خاصة الاسبانيين (أربعة آلاف عبد مسيحي) في بناء الميناء الذي دام سنتين لإكماله. وذكر الأسرى المسيحيون الذين أمضوا وقتا طويلا بمدينة الجزائر خلال القرن السابع عشر وتركوا لنا مذكراتهم أن المول مشيد بإتقان واتجاهه جنوب شرق، ويمتد طوله من حصن باب الجزيرة إلى حصن البحر بمسافة قدرها حوالي ثلاثمائة قدم وعرضها ستة عشر قدم، أي عشرون مترا طولا وخمسة وعشرون مترا عرضا، ويمكن لعربتين متعاكستين أن تسلكا ممر المول في الجهة التي تطل عليها المدينة لا البحر. وتوجد بالمول الأصغر (مول خير الدين) بعض المخازن لإيداع البضائع، ومسجد صغير وساحة صغيرة يتم بها تجهيز السفن[15].

*المول الأكبر: لما تم الربط بين الجزر الأربعة، تم بناء مول آخر باتجاه شمال-جنوب، أطول وأكبر من مول خير الدين، وتظهر أهميته في حماية السفن التي يتم تجهيزها بالساحة الصغيرة، وبه تصطف السفن التابعة للجزائر[16].

2-بناء سور الميناء: أنشأ خير الدين سنة 1532م سورا يسور الجزء المردوم الواصل بين المدينة والجزيرة، وذلك في خط مستقيم، بلغ ارتفاعه ثلاثة أمتار، وعرضه مترين. وتتجلى أهميته بكونه كاسرا للأمواج التي كانت تضرب بقوة عندما تهب الرياح الغربية والشمالية، ويضمن مرور البحارة الذين كانوا كثيري الحركة على طول المول، ويؤمن رسوالسفن داخل الميناء.

وفي عهد عرب أحمد باشا (1572-1574) أضيف سور آخر يسور الجزيرة الضخمة باستثناء الجهة الجنوبية، وكان مجرد ستار لمنع الأعداء من التسلق من البحر والاستيلاء على الميناء، وكذلك للتمكن من الدفاع عن المدينة بالأسلحة البرية، وسور الجزيرة منخفض مقارنة بسور المول[17].

3-الحصون والأبراج والبطاريات بالميناء: جاءت عملية بناء الحصون والأبراج والبطاريات المدفعية استجابة لاستمرار الضغط العسكري الأوربي الصليبي على مدينة الجزائر العثمانية، بدءا من حملة شارلكان سنة 1541 في عهد حسن آغا (1533-1545) الذي شرع في بناء بطارية بالجزيرة الكبيرة ضعيفة الرمي. ويعد عرب أحمد باشا أول من شرع في بناء الأبراج والحصون ليسلك من جاء بعده المنحى نفسه في سبيل تحصين الميناء وجعله أقوى نقطة دفاعية بمدينة الجزائر، ويمكن ذكرها كالآتي:

*برج الفنار: الفنار كلمة محلية تعني المنارة، وهي التي بناها الإسبان سنة 1510، أي منارة البنيون في وسط الجزيرة الكبيرة، وشكلها مستدير يصل قطرها إلى ستين مترا، وارتفاعها إلى أربعين مترا على مستوى سطح البحر وتتألف من طابقين مزودين بسبع عشرة فتحة نارية لمدافع ذات عيار كبير.

وأعلى هذه المنارة برج مثمن الأضلاع، بناه عرب أحمد باشا، تكون أولا من ثلاثة طوابق ثم أضيف الطابق الرابع بعد حملة اكسموث سنة 1816، ومجموع الفتحات النارية للطوابق الأربعة، ستة وستون فتحة، تضم خمس وخمسين مدفعا أغلبها من العيارات الكبيرة.

وتتجلى أهمية هذا البرج بكونه يقع في الخط الأمامي للميناء ويتوفر على دار للبارود، وخزان ماء كبير، ومقر الباش طبجي، ومكان اجتماع عساكر سلاح المدفعية، وبه سفرة عسكرية انكشارية تتجدد كل ربيع[18].

*برج رأس الحمّار (عمار) القديم: يقع برج رأس الحمار القديم شمال برج الفنار على مسافة مائة متر في نهاية خط المول، ويجهل تاريخ بنائه، به طابقين: سفلي يتوفر على خمس وعشرين فوهة وطابق علوي يشتمل على ثمان وعشرين فوهة. وفي جنوب هذا الحصن المنيع، يوجد حائط بطول اثنين وأربعين مترا تحتمي وراءه بطارية مدفعية بناها الداي محمد بن عثمان باشا سنة 1784م.

*برج رأس الحمّار (عمار) الجديد: بني هذا البرج خلال حكم حسين باشا على قناة صخرية كانت تفصل برج رأس الحمار القديم بالمنارة، هذه القناة الصخرية كانت تغمرها مياه البحر عند هيجان أمواجه مما يعرقل حركة المرور عبرها، وبالتالي لا بد من ردمها ببناء هذا البرج الذي يتكون من طابق سفلي وآخر علوي، مزودين بثلاثين مدفعا.

*البرج الجديد: شيد هذا البرج بأمر من الداي محمد بن عثمان باشا سنة 1187هـ/1773-1774م، به واحد وعشرين فتحة مدفعية، وهويدافع عن الجهة الشمالية للميناء، واسمه يدل على أنه حل محل البرج القديم الذي يطل على البحر قرب مرسى الذبان والذي تهاوى في أوائل الاحتلال الفرنسي.

*برج ما بين...: جاء في لوحة تذكارية أسفل هذا البرج تسمية "ما بين"، وهي تسمية مبتورة وتعني البرج الواقع ما بين البرج الجديد وبرج السردين. بناه الداي حسين باشا،

وهوقريب من المدينة ويرمي القذائف في كل الاتجاهات إذ به أربع فوهات مصوبة نحوالشمال، وثلاث عشرة فوهة نحوالشرق، وفوهة واحدة نحوالجنوب الغربي.

وتميز هذا البرج بإلقاء التحية العسكرية للقوات الأجنبية حيث كان يطلق منه إحدى وعشرون طلقة بعدما كانت في السابق موزعة كالآتي:

-خ مس طلقات لبرج الفنار.

- أربع طلقات للأبراج التالية: البرج الجديد، برج السردين، برج الجمان، وبرج رأس المول.

*برج السردين: بناه أحمد باشا سنة 1077هـ/1666-1667م، وأعاد بناءه الداي محمد بن عثمان باشا سنة 1190هـ/1776-1777م. وينسب إلى سمكتين رسمتا على بابه، به طابقين سفلي وعلوي مزودين بثلاثين مدفعا.

*برج الجمان (أوالحبال): بناه الداي عمر باشا سنة 1231هـ/1814-1815م على أنقاض برج صغير كان موجودا في القرن السابع عشر، يتكون من طابقين بهما ثلاثين فوهة نارية وثلاثين مدفعا، وسمي بالجمان لكون الطابق السفلي منه استعمل كمخزن لحفظ الحبال المستخدمة في المراكب البحرية.

*برج رأس المول (أوالحاج علي): هوآخر التحصينات التي كانت على البحر، ويقع في نهاية المول جهة البحر لذا سمي برأس المول، أما تسميته بالحاج علي فلأنه آخر من أعاد إصلاحه. يشتمل هذا البرج على طابقين، سفلي وعلوي، مزودين بأربع عشرة فوهة نارية، تقيم به سفوة انكشارية تتجدد عند حلول فصل الربيع، ودامت أشغال بنائه عـــشر سنوات من 1115-1124هـ/1703-1712م[19].

5-الترسانة: تقع الترسانة البحرية بالقريب من بوابة البحر، بها عدد من الغليوطات والسفن، وفيها يتم صنع المراكب البحرية الحربية والتجارية، وللترسانة قوسان كبيران، كل واحد منهما يمكن أن تجتازه سفينة كبيرة، إلا أن إحداهما مغلق بجدار طوله اثني عشر قدما، والآخر مغلق ببابين خشبيتين.

وللترسانة ساحة عرضها مائة قدم، تواجه المدينة ولا تتصل بها بأي بوابة، ومدخل الترسانة ممثل في ممر عرضه أربعة أمتار وطوله عشرون مترا، تؤدي إلى مساحة مغطاة تزيد عن ألفي متر مربع، وتسندها أركان مستطيلة الشكل مقاسها ثلاثة أمتار ونصف متر على مترين[20].

وعليه تجدر الإشارة أن ميناء مدينة الجزائر كان أقوى نقطة دفاعية بمدينة الجزائر حسب تقرير بوتان سنة 1808، من خلال حصونه وأبراجه السبع (برج الفنار، البرج الجديد، برج ما بين، برج السردين، برج الجمان، برج رأس المول، برج رأس الحمّار القديم، برج رأس الحمّار الجديد) ومن خلال فوهاته النارية المدفعية التي وصلت إلى مائتين وثلاثة وتسعين فوهة معظمها من العيار الكبير، بالإضافة إلى مساحة تقدر بثلاثة هكتارات تسع لأربعين سفينة منها أربعة فرقاطات ذات أربع وأربعين مدفعا وعدد من الكرفيتات ذات عشرين إلى ثلاثين مدفعا.

الخاتمة: ما يمكن استنتاجه هو أن مقالتنا لا تحاول أن تبرر أطروحة المستشرقين القائلة بأن مدينة الجزائر في العهد العثماني لا تعدوأن تكون مدينة عسكرية حربية بالدرجة الأولى بفعل حصونها وأبراجها التي تحيط بجوانبها ومدفعيتها وثكناتها وأسوارها وخنادقها، بل كانت مدينة الجزائر مدينة حربية بفعل الأخطار التي كانت تهددها من الخارج والداخل، ومدينة اقتصادية وتجارية ذات بعد عالمي، بفضل مينائها الاستراتيجي الذي كان وراء توسع مساحتها العمرانية وتوافد الهجرات البشرية إليها وتعدد الأعراق بها.

الهوامش:

(1) ابن حموش، مصطفى. المدينة والسلطة في الإسلام ص 245.

(2) ديفولكس، ألبير. خطط مدينة الجزائر من خلال مخطوط ديفولكس والأرشيف العثماني. تحقيق: مصطفى بن حموش وبدر الدين بلقاضي، المجمع الثقافي، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2004. ص 59.

(3) المصدر نفسه، ص ص 52، 59.

(4) **Missoum, Sakina. Alger à l'époque Ottomane –La médina et la maison traditionnelle- Inas, Alger, 2003. p 124.**

(5) ديفولكس، ألبير. المصدر السابق، ص 52.

(6) يقصد بالبطاريات، الطبانات أوالطبخانات، وهي معاقل للمدفعية في الأسوار والحصون والأبراج وفي التراب بعد حفر حفرة وإحاطتها بأكياس من التراب أوالرمال.

(7) قطع الرجل هوالمكان الذي كان يحظر فيه التجول بعد غروب الشمس.

(8) درياس، لخضر. المدفعية الجزائرية في العهد العثماني. رسالة دكتوراه، الحلقة الثالثة، جامعة الجزائر، 1989-1990. ص ص 132-136.

(9) خلاصي، علي. قصبة الجزائر (القلعة وقصر الداي). رسالة دكتوراه، الحلقة الثالثة، جامعة الجزائر، بدون تاريخ، ص ص 32-48.

(10) ديفولكس، ألبير. المصدر السابق، ص 80 وفي هذا السياق أشار الدكتور عبد القادر حليمي في كتابه حول تاريخ مدينة الجزائر إلى أن عرض الخندق يتراوح بين أحد عشر ونصف وأربعة عشر ونصف متر.

(11) حليمي، عبد القادر علي. مدينة الجزائر –نشأتها وتطورها قبل 1830- المطبعة العربية لدار الفكر الإسلامي، الجزائر، الطبعة الاولى، 1972. ص 231.

(12) **Missoum, Sakina. Op. Cit, p.124.**

(13) **Ibid, p 125.**

(14) ديفولكس، ألبير. المصدر السابق، ص ص 80-81.

(15) **Missoum, Sakina. Op. Cit, p 119.**

(16) **Idem.**

(17) ديفولكس، ألبير. المصدر السابق، ص 82.

(18) السفرة هي مجموعة من الجنود الانكشاريين، يتراوح عددهم بين أربعة عشر وعشرون جنديا، ومجموع السفرات يسمى الحامية أوالنوبة.

(19) **Missoum, Sakina. Op.Cit.pp 121-122.**

(20) **Ibid, p. 122.**